

مقدمة لدراسة محاور الطرقي النجارية في سورية الغربية خلال العصور القديمة

ميشال المقدسي*

تزايد لاهتمام العلمي بالآثار السورية عندما بدأ المستشرق الفرنسي إرنست رينان (Renan Ernest) أعماله المنهجية الميدانية التي قادها اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر بحثاً عن البقايا المعمارية - الأثرية العائدة إلى الألف الأول قبل الميلاد على طول الساحل السوري- اللبناني. وقد كان نشر نتائج هذه الأعمال الدافع الأساسي للعديد من البحاثة لتركيز أعمالهم في مناطق سورية مختلفة إن كان ذلك بمتابعة الأعمال في الساحل السوري أو المباشرة في مشاريع جديدة. وقد كانت إحدى نتائجها تسليط الأضواء بصورة مباشرة على أعمال التوثيق التي استمرت بخطوطها الرئيسية لعدد من العقود الزمنية.¹

ولقد ظهرت الأهمية الاستثنائية للمناطق الغربية من سورية عندما تم التركيز على أعمال التنقيب الميدانية عن العديد من المدن والمواقع الأساسية.² ويمكن اعتبار نتائج الكشوفات المنهجية التي تمت زمن الانتداب الفرنسي في مواقع تل النبي عند (قادش)³ وجبيل

* - المديرية العامة للآثار والمتاحف دمشق - سورية.

1 - راجع بهذا الخصوص المطبوعة الأساسية التي نتجت عن هذه الأعمال . Renan 1864

2 - راجع بشكل عام 1927 Dussaud

3 - تمت هذه الأعمال من قبل موريس بيزارد (Maurice Pizard) اعتباراً من عام 1921 ولمدة موسمين، راجع بهذا الخصوص 1931 Pizard .

(ببيلوس)⁴ والمشرفة (قطنة)⁵ ورأس الشمرة (أوغاريت)⁶ إحدى الخطوات الحاسمة لإظهار الملامح الأولى للدور الاقتصادي الذي لعبته تلك المنطقة كحلقة وصل بين مناطق البحر الأبيض المتوسط الشرقية ومصر من جهة وبلاد الرافدين والهضبة الإيرانية وحوض نهر السند من جهة أخرى.

- وفي حقيقة الأمر، فإن دراسة نتائج أعمال التنقيب والوثائق التي أعطتها ستمكّننا من إعطاء صورة واضحة عن طبيعة التبادلات التجارية وطرق القوافل والبضائع المتبادلة، وبالتالي تمكّننا من تكوين تصور واضح للعلاقات الاقتصادية التي كانت تربط مناطق مختلفة من الشرق الأدنى القديم بعضها ببعض الآخر.

شهدت مناطق الشرق الأدنى القديم المختلفة مع بداية الألف الثالثة قبل الميلاد وبصورة تدريجية قيام نهضة معمارية هي الثانية بعد النهضة الأولى التي ميزت الألف الرابعة قبل الميلاد⁷.

في حقيقة الأمر لم تكتمل ملامح هذه النهضة بشكل واضح على المستوى الإقليمي قبل بداية الربع الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد (حوالي 2700 - 2600 قبل الميلاد)، حيث أمدّتنا مجموع المواقع والتلال التي تركّز البحث عن خباياها في مناطق سورية الساحلية والداخلية عن العديد من الخصائص التي ميّزت هذه النهضة، وبالتالي الدور الأساسي الذي لعبته تلك المنطقة في الاقتصاد وحركة تبادل البضائع الشرق أوسطية.

4 - بدأت الأعمال المنهجية في هذا الموقع عام 1920 حيث قادها عالم المصريات بيير مونتّي (Pierre Montet) واستمرت اعتباراً من 1925 برئاسة الفرنسي مورييس دونان (Maurice Dunand)، راجع بالنسبة للمنشورات العلمية عن نتائج هذه الأعمال : Jidejlan 1977, Dunand 1973.

5 - بدأت الأعمال المنهجية في هذا الموقع عام 1924 وقادها الكونت روبيير دو ميسنيل دو بويسان (Robert Du Mesnil du Buisson) راجع هذه النصوص Du Mesnil Du Buisson 1935.

6 - تتم هذه الأعمال التنقيبية منذ عام 1929 وهي مستمرة في إطار بعثة أثرية مشتركة سورية فرنسية. قاد بداية الأعمال الأستاذ كلود شيفر (Claude Schaeffer)، أما بخصوص المنشورات الأولية والنهائية عن هذا الموقع راجع بشكل خاص : Yon 1997, Saade 1979.

7 - كانت النهضة المعمارية الأولى قد بدأت ملامحها مع عصر الوركاء وتميّزت بالعديد من الإنجازات الأساسية بالنسبة للتاريخ الاقتصادي للشرق الأدنى القديم نذكر منها على سبيل المثال :

- قيام المدن والمحطات التجارية على طول حوض الفرات من موقع الوركاء (أوروك) جنوباً وحتى الأناضول شمالاً.
- بداية الكتابة (التصويرية / pictographique) وظهور نظام العدد (calculi et bulles d'argile) وأولى الاختام الإسطوانية وذلك لتسهيل عملية تسجيل حركة تبادل البضائع.
- اختراع الدولاّب مما سهّل نقل البضائع.

بخصوص مجموع هذه الأمور، راجع الدراسات الحديثة التالية:

Bulleterlin 2003, Guillermo, 1993, Margueron et Prirsch 1996, Nissen, 1993.

إذا ما حاولنا القيام بتحليل عام للمعطيات الأثرية ضمن إطارها الجغرافي وخلال الفترة الزمنية التي رافقت قيام تلك النهضة المعمارية الثانية سنلاحظ وبشكل مباشر وجود مجموعات من المدن والمواقع والتلال التي ترسم فيما بينها محاور اتصال مباشرة تنطلق من الساحل السوري-اللبناني وحتى مناطق سورية الداخلية لكي تصل إلى حوض الفرات الأوسط عبر بادية الشام.

محاور الاتصال على طول الساحل السوري-اللبناني

لعبت الطبيعة الجغرافية لسورية الغربية⁸ الدور المباشر في تحديد هذه المحاور ومساراتها. فمجموع سلسلة الجبال الساحلية السورية-اللبنانية التي تنطلق من الشمال عند جبال الأمانوس⁹ بمحاذاة وهدة العمق وخليج الإسكندرون¹⁰ لتتجه نحو الجنوب عبر كتلة جبلي البايير والبسيط (الكتلة الخضراء) لتصل سلسلة جبال اللاذقية، هذه السلسلة الأخيرة تمتد من اللاذقية شمالاً وحتى سهل عكار جنوباً¹¹ وتتميز بوجود سفحين متعاكسين، شرقي وغربي، ينتهي الغربي منها بالشريط الساحلي الذي يضم العديد من السهول الخصبة، نذكر منها في الشمال سهل اللاذقية وفي الوسط سهل جبلة وأخيراً في الجنوب سهل عكار.

يشكل سهل اللاذقية عملياً، الممر الطبيعي الأمثل الذي يربط المناطق الساحلية مع هضبة حلب¹². ينطلق هذا الممر من النطاق الساحلي كي يتجه نحو حوض النهر الكبير الشمالي الذي تحده من الشمال الغربي هضبة البهلولة والكتلة الخضراء، في حين تحاذيه من الجنوب والجنوب الشرقي بدايات سلسلة جبال اللاذقية. في حقيقة الأمر يؤمن هذا الممر الطبيعي خط اتصال مباشر وسهل بين مدينة أوغاريت (رأس الشمرة)¹³ ومدينة يمحاض (حلب)¹⁴. وقد ازدهر هذا الخط التجاري على الأغلب منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد

8 - راجع بخصوص التقديم الجغرافي لهذه المنطقة "المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري"، المجلس الأول (القسم العام)، دمشق 1990.

9 - تنطلق عند نهاية سلسلة جبل طوروس.

10 - وهو منخفض أنطاكية ومصب نهر العاصي.

11 - وهي محددة من طرفيها بنهري الكبير الشمالي والكبير الجنوبي.

12 - بخصوص التقديم الجغرافي العام، راجع سعادة 1961: ص 58-61 والموصلي 1999: ص 18-21.

13 - بخصوص أهمية أوغاريت التجارية كمرقاً في شرقي البحر الأبيض المتوسط راجع :

Saadé 1979, 1995, Abou Assaf 1995, Caubbet et Matolan, Yon 1997.

14 - بخصوص وضع مدينة يمحاض في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، راجع دوران 1996 بالإضافة إلى الدراسة

التالية :

Dossin 1983 (a)

(الفترة الفينيقية في الساحل والأرامية في الداخل) عبر وجود عدد من المرافئ الهامة الواقعة في مواقع مثل رأس البسيط وتل البرسونة وراميتا¹⁵.

يتصل السهل السابق عمليا في الجنوب مع سهل جبلة الذي يشكل الممر الساحلي الوحيد الذي يربط مدينة أوغاريت شمالا مع سهل عكار جنوبا. يأخذ هذا السهل شكلا متطاولا بطول يصل إلى أكثر من عشرين كيلومتراً ويحدّه من الشمال نهر الروس في حين يشكل نهر السن حدوده الجنوبية. وتشكّل سلسلة الجبال الساحلية الحدود الشرقية، وكانت مدينة سيانو (تل سيانو الحالي وعاصمة مملكة سيانو)¹⁶ المذكورة في نصوص الألف الثانية قبل الميلاد هي المدينة الرئيسية الذي تمحور حولها السكن والتنظيم المعماري لهذا السهل. هذا التنظيم الذي كان يضمّ العديد من المرافئ الهامة كتلّ التويني وتلّ المصيطبة (جبلة الحالية) وتلّ سوكاس وتلّ عرب الملك (بالتوس)¹⁷ التي كانت تسيطر بشكل كامل على الحركة التجارية مع مناطق شرقي المتوسط المختلفة.

إذا ما حاولنا تحليل مجموع المعطيات الأثرية التي زوّدتنا بها الأعمال الميدانية والطبيعية الجغرافية لهذا السهل سنلاحظ بشكل مباشر أنّ الخط التجاري ومسيرة القوافل التي كانت تنقل البضائع يمكن رسمها وفق محور يوازي سلسلة الجبال الساحلية، وبالتالي لم يكن هناك أي منفذ مباشر وسهل نحو المناطق الداخلية أو إلى الحوض الأوسط لنهر العاصي. إنطلاقاً مما سبق يمكننا أن نعتبر سهل جبلة حلقة وصل بين منطقتين ساحليتين وفق محور مباشر ينطلق من سهل اللاذقية ليصل سهل عكار.

بالمقابل يقع سهل عكار إلى الجنوب من مدينة طرطوس في منطقة تحدها من الشمال نهايات سلسلة الجبال الساحلية ومن الجنوب بدايات سلسلة جبال لبنان. يمثل هذا السهل عمليا الواجهة البحرية لفجوة حمص ويأخذ شكل مثلثاً يبلغ طول ضلعه حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً. ما نلاحظه عند الدراسة الدقيقة لتوزع المواقع السكنية في مناطق السهل

15 - راجع بالنسبة لهذه المرافئ :

Saadé 1964, Saadé 1979, pp. 55-61, Saadé 1990 et Perreault 1994.

16 - راجع بالنسبة لتل سيانو :

Astour 1979.

أمّا بخصوص الأعمال الميدانية، راجع البني 1996 بالإضافة إلى التقارير التالية :

Bounni et Al-Maqdissi 1992 et Bounni et Al-Maqdissi 1998.

17 - راجع بخصوص هذه المواقع :

Rus 1970, Oldengurg et Rohweder 1981, pp. 55-61 et Bretschneider, Cunningham et Van Lerberghe, 1999

المختلفة هو وجود ثلاث مجموعات من التلال الأثرية يتمحور حولها الاستيطان.¹⁸ تشكّل المجموعة الأولى والمكوّنة من تلال الكزل وجاموس وعرقه¹⁹ نقطة الارتكاز الأساسية التي تطوّرت من خلالها محاور الاتصال والطرق التجارية. في حقيقة الأمر توزّعت هذه المواقع الثلاثة على مسافات متساوية حيث شكّلت فيما بينها مثلثاً يصل طول ضلعه إلى حوالي عشرين كيلومتراً. هذه المسافة تساوي مسيرة يوم واحد إذا اعتبرنا أنّ القوافل التجارية المؤلفة بشكل رئيسي من الحمير المخصّصة لنقل البضائع كانت تجتاز هذه المسافة بزمّن قد يصل إلى ست أو سبع ساعات.²⁰ من هنا نستنتج أنّ أماكن تواجد المواقع الثلاثة مدروس لكي يكون محطات تجارية رئيسية، تتوزّع من خلالها الطرق ومحاور الاتصال على النحو التالي:

- إعتباراً من تلّ الكزل نحو الشمال إلى سهل جبلة وبالتالي إلى منطقة اللاذقية ومرفئها الرئيسي أوغاريت.

- إعتباراً من تلّ عرقه نحو الجنوب باتجاه جبيل مرفأ شرقي البحر المتوسط الرئيسي.

- إعتباراً من تلّ جاموس نحو سورية الداخلية ومواقع تل النبي منو والمشرقة.

وكخلاصة لما سبق نستطيع أن نوّكّد وجود العديد من محاور الاتصال والطرق التجارية على الساحل السوري-اللبناني والتي يمكن أن نلخصها على النحو التالي:

* المحور الشمالي الذي كان يربط مدينة أوغاريت مع سهل عكّار ويمرّ عبر سهل جبلة وبالتالي يوازي سلسلة الجبال الساحلية السورية.

* المحور الجنوبي ومركزه سهل عكّار وهو عملياً صلة الوصل الأسهل لربط الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومرفأه الرئيسي جبيل مع سورية الوسطى. ويمكننا أن نتتبع في هذا

18 - راجع بشكل خاص المقدسي 1998 بالإضافة إلى الدراستين التاليتين :

Thalmann 1989-1990 et Thalmann et Al.-Maqdissi 1989.

في حقيقة الأمر صنفت هذه التلال بحسب أهميتها ومساحتها وضخامة حجمها في ثلاث مجموعات وكانت المجموعة الأهم هي المجموعة الأولى والتي تراوحت فيها مساحة المواقع بين ثمانية وعشرة هيكتارات. أمّا المجموعة الثانية فكانت مساحة المواقع والتلال تتراوح بين ثلاثة وخمسة هيكتارات في حين لم تتجاوز مساحة المجموعة الأخيرة الثلاث هيكتارات.

19 - راجع بخصوص هذا الموقع الأخير الدراسة التحليلية التالية:

Thalmann 2000

20 - بخصوص القوافل التجارية ونقل البضائع خلال العصور القديمة راجع الدراسة الهامة التالية:

Margueron 1989.

المحور المحطات الرئيسية كل عشرين كيلومترا تقريبا وهي منتظمة كالتالي: جبيل - البترون - تلّ أردة - تلّ عرقة - تلّ جاموس - سهل البقعة²¹ - تلّ النبي مندو - تلّ مدينة حمص - المشرقي.

أما بداية التنظيم العام لهذه المحاور فيتوافق بشكل تام مع بدايات النهضة المعمارية الثانية في حوالي الربع الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد (حوالي 2600-2700 قبل الميلاد) والذي شهد أولى المستودرات المصرية التي وجدت في مرفأ جبيل والذي يمكن أن نعتبره المحرك ونقطة الانطلاق الأهم عبر البحر الأبيض المتوسط ومجموع ممالكه الشرقية.²² هذه المحاور سيستمر الاعتماد عليها خلال العصور اللاحقة. وتشير النصوص والمصادر الكلاسيكية والعربية أنّ الساحل السوري-اللبناني مع محطاته التجارية ومرافئه بقيت في نشاطها حتى فترات متأخرة تعود للعصر المملوكي.²³

محاور الاتصال في سورية الداخلية

يمكننا دراسة مجموع محاور الاتصال في مناطق سورية الداخلية انطلاقا من تقاطعها مع تلك التي تنطلق من المناطق الساحلية وهنا نستطيع أن نشير إلى وجود منطقتين رئيسيتين يمكن اعتبارهما المحركين الأساسيين لجميع المحاور التي كانت تستمر حتى المناطق الشرقية أي إلى حوض الفرات الأوسط.

المنطقة الأولى تشمل القسم الشرقي من فجوة حمص وتتمركز تحديدا حول موقع المشرفة (مدينة قطنة خلال الألف الثانية قبل الميلاد)²⁴ وهي عمليا الامتداد الجغرافي

21 - لم يحدد الموقع في هذا السهل بشكل دقيق.

22 - بالنسبة للمستودرات المصرية التي وجدت في مرفأ جبيل فتعود إلى زمن السلالة المصرية الثانية وتحديدا خلال فترة حكم الفرعون (Khasekhemoui Ier) راجع بشكل خاص :

Montet 1960, pp. 33-35, Dunand 1973, pp. 20-21 et Jidejlan 1977, pp. 17-26

راجع أيضا : Allen 2003, Bietak et Kleinsgutl, 2000

23 - راجع بخصوص العصور الكلاسيكية :

Bowersock 1989, pp. 75-77 et Sartre 2002, pp. 824-850.

بالمقابل فيما يخص المرافئ والمدن الساحلية :

Poidebard 1939, Poidebard et Lauffray 1951 et Viret 1999-2000.

أما بالنسبة للعصور العربية فراجع :

Borrut 1999-2000 et Borrut 2001.

24 - فيما يخص تاريخ هذه المدينة راجع :

Dossin 1983 (b) et Klengel 2000.

نتائج أعمال التنقيب في هذا الموقع، راجع الدراسات التالية :

Du mesnil du Buisson 1935, Al-Maqdissi 1996

بالإضافة إلى العديد من التقارير الأولية التي نشرت في الأعداد الأخيرة (132/2000 - 134/2002) مجلة معهد الدراسات الشرقية في برلين (MDOG) والعدد الخاص الذي كرس لهذا الموقع من مجلة مستجدات الشرق القديم (2003. A. AOA) والصادرة عن المعهد الألماني للدراسات الشرقية (DOG).

الطبيعي للطريق التي تمرّ عبر سهل عكّار. تعتبر مدينة قطنة في حقيقة الأمر المرحلة الأهم وملتقى العديد من الطرق ومحاور الاتصال التي كانت تربط العديد من المناطق. فالمحور الذي ينطلق من مرفأ جبيل ويصل إلى مدينة قطنة عبر سهل عكّار يتابع مسيرته وفق الاتجاهات التالية :

- نحو الشمال عبر سورية الداخلية كي يصل إلى مدينة يمحاض (حلب).
- نحو الجنوب عبر منطقة القلمون أو الحدود الغربية لبادية الشام كي يصل إلى منطقة أبوم (دمشق).²⁵
- نحو الجنوب الغربي عبر سهل البقاع كي يصل إلى مدينة كوميدو (كامد اللوز).²⁶
- نحو الشرق عبر بادية الشام كي يصل إلى مدينة ماري (تل الحريري) في الفرات الأوسط.

في حين أن المنطقة الثانية تقع إلى الشمال عند سهول حلب وتتمحور حول مدينة حلب (مدينة يمحاض خلال الألف الثانية قبل الميلاد).²⁷ وقد مكّنتنا الدراسة الدقيقة لهذه المنطقة وعلاقتها مع محور سهل اللاذقية من تحديد مسارات المحاور التي يمكننا أن نلخصها كالتالي:

- * نحو الشمال إلى مناطق الأناضول الوسطى والأقسام العلوية من وادي نهر الفرات.²⁸
- * نحو الشمال الغربي عبر سهل العمق²⁹ ومن خلال ممر جبليّ الكردي والأمانوس إلى منطقتيّ غازيان تيب والإصلاحية وتحديدًا موقع تيلمين هوبوك.³⁰

25 - راجع بالنسبة لتاريخ دمشق وغطتها خلال العصور القديمة :

. Pitard 1987

26 - راجع فيما يخص هذه المدينة :

. Hachmann 1989

27 - راجع فيما يخص الدراسات التاريخية عن هذه المدينة دوران 1996، العبد الله 1996 وشعث 1987 بالإضافة إلى الدراستين التاليتين :

Dossin 1983 (a) et Durand 2002.

أما فيما يتعلق بنتائج أعمال التنقيب، راجع الدراسات التالية :

Khayyata et Kohlmeyer 1998, Kohlmeyer 2000.

28 - راجع بشكل خاص :

Mellaart 1982

29 - راجع فيما يخص سهل العمق : عرنوقي 2001.

30 - راجع بخصوص هذا الموقع:

Alkim 1971 et Alkim 1972.

* نحو الشرق إلى الفرات الأوسط عبر منطقة الجبول ومواقع تل أبو ضنة وتل أم المرة³¹ والتي تؤدي إلى موقع مسكنة (إيمار في العصور القديمة).³²

* نحو الجنوب من خلال العاصي الأوسط أو الحدود الغربية لبادية الشام إلى منطقة حمص.

وهكذا تلتقي محاور المنطقتين الشمالية والجنوبية وتتعاظم بذلك أهمية منطقة حمص ومدينة قطنة (المشرفة) بشكل خاص والتي يمكننا أن نعتبرها إحدى المفاصل الرئيسية التي تنتظم من خلالها غالبية المحاور كي تتجه بشكل مباشر إلى منطقة الفرات الأوسط وتحديدًا إلى موقع تل الحريري (مدينة ماري خلال عصور البرونز).³³

فمدينة قطنة كانت ترتبط زمن حكم ملكها أشخي أدو (بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد) بعلاقة وثيقة مع مدينة ماري وحاكمها يسمع أدو ابن ملك أشور شمي أدو مما جعلها في صراع معلن مع مملكة يمحاض. ونتيجة لهذا الصراع وللوضع السياسي المتأزم وضرورة الحفاظ على الخطوط التجارية بين مناطق سورية الشرقية والغربية المختلفة ظهرت الحاجة إلى إعادة تنظيم محاور الاتصال التي كانت تربط مدينتي ماري وقطنة وذلك عبر بادية الشام لتجنب المرور بالطرق التي كانت تسيطر عليها مملكة يمحاض والتي كانت تمر على ما يعتقد من خلال مدينة إيمار.

إذا ما أردنا القيام بدراسة تحليلية لإحدى الرسائل الموجهة من قبل شمشي أدو إلى ابنه يسمع أدو³⁴ بخصوص الجيش المؤلف من عشرين ألف رجل وكانت ماري قد قررت إرساله إلى قطنة عبر البادية سوق، تستوقفنا عدة ملاحظات أساسية أهمها طلب شمشي أدو من ابنه قبل البدء بالحملة أن يستعين بمجموعات بدوية لهم الخبرة في التنقل عبد البوادي لاستشارتهم عن طبيعة هذه الطرق ومخاطرها. بالإضافة إلى ذلك فإن شمشي أدو يؤكد ضرورة التحري مسبقًا عن مناهل المياه ومعرفة أماكن تواجدها ومدى غزارتها لكي تكفي

31 - في حقيقة الأمر هذا المحور يتفرع إلى عدد من الطرق التي تمر حول سبخة الجبول أو عبر الشمال حتى مناطق جرابلس (كركيميش)، راجع بشكل خاص:

Finet 1969 et Tef,o, 1977-1978

32 - راجع فيما يخص مدينة إيمار :

Margueron 1990 et Durand 1990

33 - راجع بخصوص مدينة ماري

Margueron 1996, Margueron (à paraître) et Charpin 1992

34 - راجع النص والدراسة المخصصة له :

Durand 1987, pp. 163-167

هذا العدد الضخم من الجنود. وفي النهاية يستفسر شمشي أدو عن مدى صلاحية الطرق التي يجب أن تسلكها هذه الجيوش ويطلب من يسمع أدو أن يرسل له تقارير مفصلة عن طبيعة الطريق العلوية والطريق الوسطى وأخيراً الطريق الدنيا.³⁵

يمكننا أن نستنتج من هذه الرسالة أن الطرق التي كانت تخترق البادية لم تكن ثابتة وبالتالي فإنّ عدة عوامل كانت تلعب في تحديد مسارها أهمها عامل المياه وتوفره على اختلاف فصول السنة وكذلك مدى صلاحية هذه الطرق للتنقل والمسير تبعاً للتغيرات الجوية والمناخية التي تطرأ أثناء الرحلة. أضف إلى ذلك كلّ خطر الغزوات المفاجئة للمجموعات البدوية التي كانت منتشرة بشكل كثيف في مناطق عديدة من البادية.

مجموع هذه الملاحظات تجعلنا نميل للاعتقاد بعدم وجود محطات طرقية ثابتة باستثناء مدينة تدمر التي كانت تتوسط الطريق ومدينة نازالا (القريتين حالياً) وأنّ هذه الطرق تتغير وفق طبيعة الرحلة إن كانت عسكرية أو تجارية أو زيارة ملكية.

يجب أن نشير في الختام إلى أهمية المجموعات البدوية ومعرفتها التامة للبادية وعلى الخصوص أماكن تواجد المياه والينابيع التي كانت تتم عملية المحافظة عليها من خلال إخفائها وطمرها بشكل جزئي وترك بعض العلامات للاسترشاد عن مكانها عند الحاجة إليها. وتعتبر عملية المحافظة على مصادر المياه وإخفائها إحدى الإشكاليات الأساسية التي كانت من خلالها تسيطر المجموعات البدوية على مناطق واسعة من بادية بلاد الشام. فمعرفة أسرار هذه الأماكن يساعد بشكل مباشر على استمرار الحياة بشكل مقبول في هذه المناطق خلال الفصول الحارة وبشكل خاص أثناء الحاجة إلى قطع مسافات طويلة. وهذا ما تمّ بشكل فعلي أثناء الثورة العربية عندما قامت المجموعات المخصصة بمهاجمة عمق الجيش العثماني بالالتفاف عليه عبر صحراء الربع الخالي والتي تمت بمساعدة العديد من المجموعات المحلية للاستدلال على مناهل المياه وكشفها وبعد الانتهاء من استعمالها كانت تتم عملية إعادة إخفائها.³⁶

وهكذا يمكننا أن نؤكد أنّ المحاور التي كانت تخترق البادية السورية لعبت دوراً حيوياً منذ بدايات النهضة المعمارية الأولى. والاكتشافات التي تمت حديثاً في مدينة تدمر³⁷ تؤكد

35 - يمكن مراجعة أماكن تواجد هذه الطرق في الدراسة السابقة : الخارطة المنشورة في الصفحة 162.

36 - حاولت القوات العثمانية كشف هذه المناهل والسيطرة عليها أو تخريبها لمنع القوات العربية من الاستفادة منها، راجع بشكل أساسي مذكرات توماس إدوار لورانس (لورانس العرب) "أعمدة الحكمة السبعة" في نسختها الجديدة : Lawrence 1995.

37 - بالنسبة لمدينة تدمر ، راجع البني 1978 بالإضافة إلى الدراسة التالية :

Will 1992

وجود سويات قديمة في مكان معبد بل تعود إلى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد³⁸ مما يمكننا من اعتبار هذه المدينة محطة رئيسة منذ ذلك الزمن وحتى العصور الكلاسيكية.³⁹ كذلك كانت القريتان (نازالا في العصور القديمة)⁴⁰ إحدى المحطات التي تتفرع فيها المحاور نحو منطقة دمشق (أبوم في العصور القديمة).

محاور الاتصال في منطقة الفرات الأوسط

لعبت منطقة الفرات الأوسط منذ النهضة المعمارية الأولى في النصف الثاني من الألف الرابعة قبل الميلاد (عصر الوركاء) دوراً هاماً إن كان في نشوء العديد من المدن أو في تنظيم حركة التبادلات التجارية ومحاور الاتصال على طول مناطق الفرات الأوسط المختلفة.⁴¹ ويمكننا أن نعتبر مواقع حبوبة الكبيرة⁴² وجبل عرودة⁴³ وتلّ الشيخ حسن⁴⁴ وأرسلان تيبى مراحل أساسية في المحور الذي كان يربط الجنوب الرافدي مع الفرات الأوسط.⁴⁵

سيظهر هذا الدور الاستراتيجي من جديد مع النهضة المعمارية الثانية وستكون العديد من مناطق الشمال الرافدي وسورية ضمن تنظيم عام هدفه ربط مصر الفرعونية وممالك شرقي البحر الأبيض المتوسط مع الهضبة الإيرانية وسهل السند وأفغانستان.⁴⁶

بطبيعة الحال سيكون لمناطق الفرات الأوسط أحد الأدوار الأساسية في عملية الربط بين هذه المناطق المختلفة. ومن هنا سوف تزدهر العديد من المدن وسيكون لها تطوّر حضاري مدهش ومنها مدينة ماري (تل حريري) التي أسست مع بداية الألف الثالثة قبل الميلاد

38 - كشفت الحفريات التي تمت في باحة معبد بل تحت إشراف الدكتور عدنان البني والدكتور ميشال المقدسي على وجود سويات أثرية تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، راجع بهذا الخصوص :

Al-Maqdissi 2000

39 - بخصوص الوضع التجاري الاستراتيجي لمدينة تدمر خلال العصور الكلاسيكية، راجع الدراستين التاليتين :
Teixidor 1984 et Gawlikowski 1983

40 - راجع بالنسبة للقرنيتين الريحاني 1961-1962 ص 106.

41 - راجع بهذا الخصوص الدراسات التالية :

Butterlin 2003, Collins 2000, Guillermo 1993, Margueron 2003, pp. 54-57 et Nissen 1993.

42 - راجع بالنسبة لهذا الموقع : Vallet 1997

43 - راجع بالنسبة لهذا الموقع : Forest 1997

44 - راجع بالنسبة لهذا الموقع : Boese 1995

45 - راجع فيما يخص إشكالية هذا المحور والتطور الحاصل في المكتشفات الأخيرة التي تمت في مناطق الجزيرة السورية :
Butterlin 2003, pp.331-381

46 - راجع بشكل عام :
Finet 1969, Lebeau 2000, Roaf 1991, pp. 78-89

(المدينة الأولى) بمسقط دائري يصل قطره إلى 200 كم، وشهدت إعادة تأسيس ضخمة مع بداية النهضة المعمارية الثانية⁴⁷ حيث سيطرت على عقدة المحاور التي كانت تمرّ عبر الفرات الأوسط وتنطلق اعتباراً من هذه المدينة في الاتجاهات التالية:

* نحو الشمال الغربي بمحاذاة الفرات نحو مواقع مثل تل البيعة (توتول)⁴⁸ ومسكنة (إيمار)، وبالتالي يمكن الوصول بسهولة إلى سهول حلب ويمحاض.

* نحو الغرب وعبر بادية الشام لكي تلتقي مع محور المشرفة - تدمر.

* نحو الشمال الشرقي إلى منطقة الخابور والجزيرة السورية⁴⁹ ومواقع مثل تل ليلان (شوبايط إنليل)⁵⁰ وتلّ شاغار بازار.⁵¹

* نحو الجنوب إلى المناطق الوسطى من بلاد الرافدين والخليج العربي.

إنطلاقاً ممّا سبق، تظهر أهمية مدينة ماري كمحطة رئيسية في منطقة الفرات الأوسط وتسيطر على مفاصل المحاور الرئيسية. وقد استمرت هذه السيطرة حتى سقوطها النهائي من جرّاء الغزو البابلي تحت قيادة الملك حمورابي حوالي عام 1760 قبل الميلاد. هذه السيطرة الاقتصادية لأكثر من ألف عام جعلت من تلك المدينة على درجة كبيرة من الغنى لا يقابلها في بلاد الرافدين إلا مدينة أور العاصمة العالمية للآزورد (lazuli-Lapis).⁵² هذه السيطرة الاقتصادية كانت لخطوط ومحاور تجارية بعيدة جداً تبدأ من الساحل الشرقي للمتوسط لكي تصل إلى الهضبة الإيرانية ومناطق مختلفة أبعد من ذلك في الوشيشستان - وادي السند (Baluchistan) والباكتران - أفغانستان (Bactriane).⁵³ وكانت أحجار الآزورد المادة الرئيسية المستوردة من مناطق باداهستان - سار إسانغ (Badakhshan)-

47 - راجع فيما يخص تأسيس هذه المدينة الأول إعادة تأسيس

Margueron 1996, Margueron 20090 et Margueron (à paraître)

48 - راجع بخصوص هذه المواقع

Strommenger et Kohlmeyer 1999.

49 - راجع بشكل عام داود 1959

50 - راجع فيما يخص هذا الموقع :

.Weiss, 1985

51 - راجع فيما يخص هذا الموقع :

.Curtis, 1982

52 - راجع بخصوص الآزورد الدراسة التالية :

.Casanova, 2000

53 - راجع فيما يخص هذه الخطوط التجارية :

.Amjet, 1986

(Sang i-Sar) في أفغانستان وجبال شاغاي (Chaghai) عند الحدود الأفغانية-الباكستانية تصل كموايد أولية عبر عدد من المراحل إلى المدن الرافدية والسورية مثل أور⁵⁴ وماري⁵⁵ وإبلا⁵⁶ حيث تصنع وفقا للأسلوب الفني المحلي وفي بعض الحالات يتم تصديرها إلى مصر حيث تصنع وفق الأسلوب المصري لكي تعود من جديد إلى مناطق الشرق المختلفة.⁵⁷ كذلك كان يتم استيراد الأواني المصنعة من حجر الكلوريت - ستياتيت (chlorite-steatite) من الهضبة الإيرانية والخليج العربي،⁵⁸ حيث وجدت أعداد من هذه المنتجات في مدينة مثل ماري.⁵⁹

الخلاصة

قامت مع بدايات النهضة المعمارية الثانية في مناطق الشرق الأدنى المختلفة مجموعة من الممالك والمدن التي نظمت حركة التبادلات التجارية بين مناطق مختلفة امتدت من آسيا الوسطى شرقاً وحتى مصر والسواحل المتوسطية غرباً. وكانت سورية الغربية إحدى المفاصل الرئيسية وحلقة الوصل بين مصر والأناضول وشرقي المتوسط من جهة وبلاد الرافدين من جهة أخرى. وبالتالي سوف نشهد مع بداية عصر البرونز القديم الثالث (فجر السلالات الثاني 2700-2500 قبل الميلاد) قيام مجموعة من المحاور والطرق التي كانت تنطلق من المرافئ المتوسطية (بيلبوس وأوغاريت) وتتجه نحو الممرات التي تسمح بالانتقال إلى سورية الداخلية (سهل عكار وفجوة حمص بشكل خاص). وقد مكنتنا الدراسة التحليلية الدقيقة للطبيعة الجغرافية وتوزع السهول والوادي بالنسبة للمرتفعات الجبلية من تحديد المحاور الأساسية التي كانت تنظم حولها الطرق والمعابر بين المناطق الأساسية من سورية

54 - راجع بخصوص مذينة أور :

Hubert 1996

55 - راجع بخصوص مدينة ماري :

Parrot, 1968

56 - راجع بخصوص مدينة إبلا :

Minnock, 1993

في حقيقة الأمر وجدت مادة اللازورد الأولية بكميات كبيرة في القصر الملكي (G)، راجع بشكل خاص : Matthiae, Pinnock et Scandone Matthiae 1995.

57 - يمكن مراجعة هذه الأفكار في الدراسة التالية :

Scandone-Matthiae 2002

58 - يعتبر تيبى يحى الواقع في صحراء لوط من أهم المواقع التي كانت تصنع هذا النمط من الأواني، راجع بهذا الخصوص :

Margueron et Pfirsch 1996, p. 94.

59 - راجع بشكل خاص :

Parrot, 1974, pp. 37-43.

الداخلية.⁶⁰ وكانت مدن حلب وقطنة ودمشق المحطات الاقتصادية الأهم التي كانت تسيطر على مناطق عبور القوافل نحو وادي الفرات الأوسط عبر بادية الشام.

يصعب تحديد معابر الطرق في بادية الشام لأنها تتبدل تبعاً للأوضاع السياسية وطبيعة القوافل والفصول. لكن الواحات الرئيسية (تدمر والقريتين والكوم) كانت مثابة محطات هامة تمرّ من خلالها تلك المحاور لكي تصل إلى حوض الفرات الأوسط الذي تسيطر فيه إقتصادياً مدينة ماري من خلال موقعها الجغرافي المتميز.

يمكننا أن نعتبر هذا التلخيص العام والمراحل والطرق التي كانت تقطعها مجموع القوافل كي تصل إلى بلاد الرافدين بمثابة أقدم تنظيم تجاري شامل في مناطق الشرق الأدنى القديم والذي سيستمر حتى فترات متأخرة.⁶¹

وقد تنوّعت المواد التجارية التي كانت تنقل عبر هذه الطرق نذكر منها اللازورد (أفغانستان) وأواني الكلوريت-ستياتيت (إيران) والألباستر (مصر) والأخشاب (سورية الغربية) والأناضول وزاغروس وطوروس) وخامات المعادن الأولية.⁶² كذلك يمكننا أن نوّكد الأهمية الثقافية لتلك الطرق التي سهّلت انتقال وتبادل الأفكار والآداب على أنواعها والمعتقدات الدينية⁶³ وكذلك تأمين الانتشار السريع للكتابة والتدوين.⁶⁴

60 - وهي سهول حلب في الشمال ومنطقة حمص في الوسط وحوض دمشق في الجنوب. فيما يخص المنطقة الوسطى، راجع بشكل خاص : Dbiyat-Al، 1995.

61 - راجع بشكل عام أبو عسف 1991، والدراسات التحليلية التالية :

Durand 2000, Glassner, 2000, pp. 121-158 et Wirth, 1989.

62 - النحاس (الأناضول وقبرص وديلمون) والقصدير (جبال خرسان - إيران) والزرنيخ (الأناضول في أغلب الظن) والرصاص (عيلام والكابادوس) والذهب (الأناضول وطوروس وشبه الجزيرة العربية). لا بد من الإشارة هنا إلى عدم تواجد هذه الخامات المعدنية الأولية في بلاد الرافدين وهذا يشكل مشكلة حقيقية بالنسبة لتصنيع الأدوات البرونزية التي كانت تنتجها مدن تلك المنطقة بكثافة. من هنا نستطيع تبيان الأهمية الحيوية والاقتصادية لقيام وتنظيم الطرق ومحاور الاتصال والسيطرة عليها من قبل تلك المدن.

63 - فيما يخص هذه الأفكار الهامة، راجع الدراسات التالية :

Charpin et Joannes 1992, Bottero 1987, Bottero 1996 et Lambert 1982.

64 - راجع بالنسبة لتاريخ انتشار الكتابة في مصر ومناطق الشرق الأدنى القديم البني 2001 ص ص 21-42، كذلك يمكن مراجعة :

Andre-Leicknam et Ziegler 1982 et Seipel 2003.